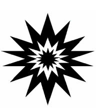
المطلب الأول

ماهية العقل والنقل ومدارك اليقين



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

فمن أهم الأمور التي تقرر العقيدة السليمة، وتمكن من رسوخها في قلوب المسلمين، وتسهم في إزالة الخلاف بين عامة المختلفين، وتقرب القلوب إلى التمسك بالقرآن والسنة على فهم سلف الأمة، بيان حقيقة العلاقة بين العقل والنقل، أو العلاقة بين عقل الإنسان وما ورد في القرآن والسنة، فالعلاقة بين العقل والنقل تعتبر عاملا حاسما في تحديد هوية المسلم واعتقاده، لاسيما في باب الغيبيات، والإيمان بما ورد فيه من الأسماء والصفات.

ولأهمية ذلك نحاول في هذا المطلب أن نتعرف على موقف السلف الصالح من تلك العلاقة، وما هو المنهج الصحيح الذي يسلكه الموحد في هذا الموضوع؟

- **ما المقصود بالعقل؟**

العقل في أصح الآراء: غريزة وضعها الله في قلوب الممتحنين من عباده، تابعة للروح، وموضوعة في الجانب الغيبي من قلب الإنسان،

غريزة لا نعرف كيفيتها، ولكن نتعرف على وجودها، ووجود أوصافها من أفعال الإنسان في ظاهر البدن، فيقال: هذا عاقل، إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها.

والدليل على أن العقل موجود في القلب قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج:٤٦.

قال الثعالبي: (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ) [(١)].

وقال القرطبي: (أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن، وقد قيل: إن العقل محله الدماغ، وروي ذلك عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة) [(٢)].

وصح من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: (رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثلاثةٍ: عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلمَ، وَعَنْ المَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِل) [(٣)].

---

(١) تفسير الثعالبي ٣/٨٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/٧٧.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا ٤/١٤١ (٤٤٠٣)، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل ٢/٥ (٢٩٧) .

• ما هي الغاية الرئيسية من وجود العقل؟

لما كانت الإرادة في القلب هي محل الكسب، وهي مسئولة عن شحن العقل بالمعلومات، أو تركه أجوف خاليا فارغا، فإن دور العقل يتمثل في إدراك المعلومات وتحصيلها، وجمعها وترتيبها.

كما أن حواس الإنسان وسيلة نقلها إليه؛ فهي المسئولة عن إدخال المعلومات وإخراجها، ثم يقوم العقل بعد ذلك بتحليلها، وتصنيف الحدث المرافق لها، ثم يخزنها في الذاكرة لاستدعائها، حسب ما يشاء الإنسان.

والغاية الرئيسية من وجود العقل، معرفة الإنسان ما ينفعه أو يضره، وكيف يحصِّل الخير الأعلى والأفضل دائما؟ فالعقل بقياس الأولى ـ ولله المثل الأعلى ـ شأنه شأن العقل الالكتروني، أو جهاز الكمبيوتر، غير أن هذا من صنع البشر، وذاك من صنع خالق البشر، وشتان بين هذا وذاك.

ولما كان عظم المنفعة من أجهزة الكمبيوتر يرتبط طرديا مع البرامج العلمية عالية التقنية، كان عِظَمُ المنفعة من العقل البشري مرتبطا أيضا مع التزام الإنسان بالمناهج الدقيقة والتشريعات المحكمة، التي تضمن له سبل السعادة في الحياة وبعد الممات.

ولن نجد دستورا يتصف بالدقة والشمولية، أو كمال الحكمة في الأحكام التشريعية أكمل من منهج الله، فلو وضع الله ﷻ للإنسان

منهجا ونظاما، ودستورا وأحكاما، وحلالا وحراما، كان الكمال كله فيه، وكان صلاح العقل في اتباعه.

وذلك لأن علم البشر لا يقارن بعلم الله، والحكم بغير شرعه ونظامه لا يرقي إلى الحكم بما أنزل الله.

ومن المعلوم لدى كل فطرة سليمة أن العاقل هو الذي يحرص على جلب المنفعة وتحصيلها، وحب الخيرات وتفضيلها، ولا نجد عاقلا يفضل الخير الأدنى على الخير الأعلى.

والعاقل أيضا هو الحريص على دفع المضرة وإبعادها، كما أنه يتحمل مشقة أدنى، ليحصِّل منفعة أعلى، ويضحي مما يملك بالقليل، ليحصِّل من خلاله الكثير، ويحرص على الباقي، ويزهد في الفاني، فالمريض مثلا يتحمل مرارة الدواء طلبا للشفاء.

إذا كانت تلك أوصاف العقلاء النابعة من الفطرة السليمة، فإن دعوة الإسلام دعوة راقية عظيمة؛ لأنها بنيت على إيثار المصلحة العليا، وتفضيل ما عند الله بطلب الجنة، والبعد عن النار، فليس بعد نعيم الجنة من خير، وليس بعد عذاب النار من شر.

روى مسلم من حديث أَنس ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (يُؤْتَي بِأَنْعَمِ أَهْل الدُّنْيَا مِنْ أَهْل النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثمَّ يُقَال: يَا ابْنَ آدَمَ، هَل رَأَيْتَ خَيْرًا قَطّ؟ هَل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطّ؟ فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَي بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْل الجَنَّةِ

فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَال لهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَل رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) (١).

وقال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ الأعلى:١٦/١٩.

والقرآن يخبرنا أن المعرض عن ربه يعترف بذنبه، ويقر على نفسه بأن الله منحه غريزة العقل؛ لكنه لم ينتفع بها، وأنه لم يكن عاقلا حين فضل الدنيا على الآخرة.

قال تعالى عن وصف جهنم وأهلها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ الملك:٨/١١.

قال الحارث المحاسبي: (جميع الممتحنين المأمورين من العقلاء البالغين كلهم، لهم عقول يميزون بها أمور الدنيا كلها، الجليل والدقيق، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون. ألم تسمعه ﷻ يقول: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ الأعراف:١٩٨. وقال جل ثناؤه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ ﴿١٧٩﴾﴾ الأعراف:١٧٩.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة ٢١٦٢/٤ (٢٨٠٧).

وهم بالدنيا أهل بصر وسمع وعقل؟ ولم يعن أنهم صم خرس مجانين، وإنما عذبهم لأنهم يعقلون. لو تدبروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه، من آيات الكتاب، وآثار الصنعة، واتصال التدبير الذي يدل عليه، لعلموا أنه واحد لا شريك له. حكى تعالى قول أهل النار فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ الملك: ١٠.

وقد كانت لهم عقول وأسماع، لزمتهم بها الحجة لله ﷻ، وإنما عني ﷻ أنها لم تعقل عن الله فهما لما قال من عظيم قدر عذابه، فندمت ونادت بالويل والندم، لا أنها لم تكن تسمع ولا تعقل، ولا كانوا بمجانين، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه، ووعد وتوعد)[١].

• ما هي حدود المعرفة بالعقل؟

حدود المعرفة بالعقل ما وقع تحت مدارك الإنسان من معلومات يدركها بحواسه الخمس، وما نشأ في القلب من علم نتج عن النظر في عالم الشهادة، من خلال الأسباب، أو بأنواع الدلالات العقلية المختلفة، كفهم دلالة الأسباب على نتائجها، والنتائج على أسبابها، وارتباط العلل بمعلولاتها، والتعرف من خلالها على خالقها.

والله ﷻ قد خلق الإنسان بجهاز إداركي محدود تحقيقا لعلة الابتلاء في العبادة التي أوجدنا من أجلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

---

(١) ماهية العقل للمحاسبي ص ٢١٨، نشر دار الفكر، بيروت.

نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان:٢.

وقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل:٧٨.

وكل ذلك لإظهار حكمة الله في تكليف العباد بالشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والتصديق بما جاء في رسالة الإسلام، فوجب على المسلم شهادة الحق وقول الصدق، وترك الزور والبهتان والإفك، وترك دعوى علم الغيب، أو القول على الله بلا علم.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحج:٣٠.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان:٧٢.

والمسلم مطالب بالتصديق الجازم لكل خبر ورد عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكل ما ورد في القرآن والسنة من أمور الإيمان أركانه، وأن يثبت ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ، وحرم عليه أن يتقول على ربه، بوضع آراء عقلية، يحكم بها على الأدلة النقلية، فيأخذ منها ما يشاء، ويعطل ما يشاء، فيقع في البدعة وظلمة الأهواء.

قال الله تعالى في وصف الإنسان ومحدودية علمه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

﴿ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء: ٨٥.

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ النمل: ٦٥.

• ما هي العتبات المطلقة للحواس الخمس؟

لقد أجريت التجارب والدراسات الحديثة لتقدير القيم التقريبية للحدود التي يستقبلها الجهاز الحسي والإدراكي من المؤثرات الخارجية، والتي يطلقون عليها في علم النفس، العتبات المطلقة للحواس الخمس، فوجدوا الحقائق التالية:

١- أن البصر يدرك به العقل صورة شمعة مضاءة، ترى على بعد ثلاثين ميلا في ليل مظلم صاف، ٢٩٠ مليميكرون.

٢- أن السمع يدرك به العقل صوت دقة ساعة في ظروف هادئة تماما على بعد عشرين قدما.

٣- والتذوق يدرك به العقل ملعقة صغيرة من السكر، مذابة في جالونين من الماء.

٤- الشم يدرك به العقل نقطة عطر منتشرة في غرفة مساحتها ستة أمتار مربعة .

٥- وحاسة اللمس يدرك بها جناح ذبابة، يسقط على الصدغ من مسافة سنتيمتر واحد تقريبا.

وإذا كان الجهاز الإدراكي في الإنسان قاصرا بتلك الصورة في

الدنيا، فمن الصعب أن يرى ما وراء ذلك مما يحدث في القبر من عذاب أو نعيم، أو يرى الملائكة، أو الجن، أو عالم الغيب، أو يرى الله سبحانه وتعالى من باب أولى.

ومعلوم أن عدم رؤيته لهذه الحقائق لا يعنى عدم وجودها، فالجن مثلا جهازه الإدراكي يختلف عن الإنسان من حيث القوة، كما قال الله تعالى في وصفه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ الأعراف:٢٧.

- **انعدام رؤية الأشياء يكون لسببين اثنين.**

ولما طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل، لم يكن الجواب باستحالة الرؤية أو نفيها مطلقا، ولكن النفي معلق بانتهاء الحياة الدنيا، فإن الشيء لا يرى لسببين:

١. خفاء المرئي وهو ممتنع في حق الله.

٢. ضعف الجهاز الإدراكي للرائي.

وهذا شأن موسى عليه السلام، ولذلك تجلى الله للجبل الذي يتحمل أقصى درجة ممكنة من ضوء الشمس، والذي لا يتحمله الإنسان أكثر من تسع دقائق تقريبا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا

﴿... تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ الأعراف:١٤٣.

ومن ثم فإنه من الخطأ طلب البحث عن كيفية الأمور والحقائق الغيبية، أو كيفية الذات الإلهية، أو كيفية صفاتها؛ لأن السنن التي أوجدها الله في الكون لا تسمح بذلك، اللهم إلا إذا حدث خرق للعادة في بعض معجزات الأنبياء؛ فيرون الملائكة أو الجنة أو النار أو بعض أمور الغيب مما يحدث في القبر أو في السماء، أو ما يعجز الإنسان العادي عن إدراكه.

وقد ورد عند البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (خَسَفَتْ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فقَرَأَ سُورَةً طَوِيلةً، ثمَّ رَكَعَ فَأَطَال، ثمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثمَّ اسْتَفْتَحَ بِسُورَةٍ أُخْرَى، ثمَّ رَكَعَ حَتَّى قَضَاهَا وَسَجَدَ، ثمَّ فَعَل ذَلكَ فِي الثانِيَةِ، ثمَّ قَال: إِنَّهُمَا آيَتَان مِنْ آيَاتِ اللهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذلكَ فَصلوا حَتَّى يُفْرَجَ عَنْكُمْ. لقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُل شَيْءٍ وُعِدْتُهُ، حَتَّى لقَدْ رَأَيْتُ أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنْ الجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلتُ أَتَقَدَّمُ. وَلقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ)[١].

وفي رواية أخرى عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لا يَخْسِفَانِ

---

(١) البخارى، كتاب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة ١/٤٠٦ (١١٥٤).

لَمِوْتِ أَحَدٍ وَلا لحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلكَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ. قَالوا: يَا رَسُول اللّٰهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلتَ شَيْئًا فِي مَقَامِك، ثمَّ رَأَيْنَاكَ كَعْكَعْتَ. قَال ﷺ: إنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلتُ عُنْقُودًا، ولَوْ أَصَبْتُهُ لأَكَلتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا. وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلهَا النِّسَاءَ. قَالوا: بِمَ يَا رَسُول اللّٰهِ؟ قَال: بِكُفْرِهِنَّ. قِيل: يَكْفُرْنَ بِاللّٰهِ؟ قَال: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ. لوْ أَحْسَنْتَ إِلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلهُ، ثمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) [(١)].

أما أمر الإدراك في الآخرة فهو مختلف تماما، إذ أن مدركات الإنسان في الآخرة تختلف عن مدركاته في الدنيا، كما ورد عند البخاري ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النبي ﷺ قال: (خَلَقَ اللّٰهُ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ، طُولهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلمَّا خَلقَهُ قَال: اذْهَبْ فَسَلمْ عَلى أُولئِكَ النَّفَرِ مِنْ المَلائِكَةِ جُلوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَال: السَّلامُ عَليْكُمْ، فَقَالوا: السَّلامُ عَليْكَ وَرَحْمَةُ اللّٰهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللّٰهِ، فَكُل مَنْ يَدْخُل الجَنَّةَ عَلى صُورَةِ آدَمَ، فَلمْ يَزَل الخَلقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآن) [(٢)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة ١/٣٥٧ (١٠٠٤)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢/٦٢٦ (٩٠٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب بدء السلام ٥/٢٢٩٩ (٥٨٧٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٤/٢١٨٣ (٢٨٤١).

والحديث دل على أن الإنسان يوم القيامة يكون على صورة آدم عليه السلام طوله ستون ذراعا. ومن ثم فإن مداركه وحواسه تتغير بالكيفية التي تناسب أمور الآخرة وما فيها. فإذا أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، علمنا أن إدراك العين المبصرة في الدنيا وقدرتها تختلف عن إدراك العين المبصرة في الآخرة، وقدرتها على الرؤية.

روى البخاري ومسلم عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَال: (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي البَدْرَ، فَقَال: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْل طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل غُرُوبِهَا فَافْعَلوا. ثمَّ قَرَأَ: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْل طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل الغُرُوبِ) [(١)].

من أجل ذلك وجب الإيمان بالرؤية في الآخرة، والتسليم بذلك، لموافقته للعقل الصريح والنقل الصحيح.

وكذلك الحال في بقية الأسماء والصفات التي أخبرنا الوحي عنها، نؤمن بها ونثبتها لله دون أن نطلب البحث عن كيفيتها.

• العقل الصريح ومدارك اليقين.

أما العقل الصريح فأقصى حدوده، أن يتعرف على وجود الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ٢٠٣/١ (٥٢٩)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ٤٣٩/١ (٦٣٣).

وعظمته من خلال الأسباب ودلالتها، وكيفية التلازم بينها في ترابطها، وهناك عدة أمور يدرك بها العقل حقائق الأشياء على وجه اليقين.

أولها: البديهيات أو الأوليات.

وذلك كالحكم على أن البعرة تدل يقينا على البعير، وأن الأثر يدل يقينا على المسير، وهكذا كل مفعول، لابد له من فاعل، وكل نتيجة لابد لها من سبب. فنحن ما رأينا سيارة تتحرك دون قائدها، أو أوراقا مسطرة بكلمات بديعة كتبت وحدها بغير كاتبها، وما شاهدنا أبدا حجارة ورمالا تتحرك وحدها، فتجتمع على بعضها، وترتب نفسها بنفسها، لتقيم قصرا بديعا، أو سدا منيعا.

ولهذا لما سئل أعرابي عن وجود الخالق فقال معبرا في إجابته عن فطرته الإسلامية النقية: (إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟)[1].

لقد بنى الأعرابي إجابته على دلالة الأوليات على الخالق باليقين، وأنه من المحال عقلا أن يوجد مخلوق بغير خالق، وإلى هذا أشار القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ الطور:٣٥/٣٦.

وقد أكد الإنسان العاقل صاحب العقل الصريح بنظره في الواقع أنه

(١) كتاب المواقف، لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ١/١٥١ .

لا يمكن أن يخلق نفسه، فضلا عن غيره، ولو استطاع أن يخلق نفسه، لصورها كما يشاء، ولأوجد فيها كل صفات الكمال وما يشتهيه ويتمناه، ولم يجعلها عرضة لنوازع النفس التي تنقص من قدر الشخص بين عباد الله. ولكن الواقع الذي يراه، ويحسه الجميع، ولا يشك فيه عاقل، أن الإنسان يبدأ من نطفة، ويمر بأطوار مختلفة، حتى إذا اكتمل تكوينه، خرج من بطن أمه في منتهى العجز والضعف، لا يعلم من أمر الحياة شيئا، ثم يتدرج في النمو حتى يبلغ في القوة مداها، ثم يبدأ في الاضمحلال بالشيخوخة إلى أقصاها، ثم تنتهي حياته فيموت ويرجع إلى التراب، ثم يتحول بعد ذلك إلى عظام بالية.

قال الله تعالى مخاطبا العقلاء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾ الحج:٥ .

والحق سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى النظر في آياته الكونية، والمخلوقات المرئية، بما في ذلك النفس البشرية، فهي في حقيقتها صفحات كونية، وأدلة عقلية في كتاب الله الكوني، ودور الإنسان الذي أمر الله به في القرآن هو التفكر والاعتبار، والنظر في الآثار، فدور العقل هنا البحث في المخلوقات، وما فيها من حكم وآيات، فإن

المفعولات دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فالمفعول يدل على الفاعل، والمخلوق يدل على الخالق، وذلك يدل باللزوم على وجود الله وقدرته، وعلمه ومشيئته.

ثم ما في المخلوقات من أنواع التغييرات، وما فيها من تنوع في الأشكال والجمال، والحسن والكمال، يدل على وجود إرادة للحق في إدارة الملك، كما أن ما فيها من المصالح والغايات، والحكم البينات الواضحات، يدل على علمه سبحانه وحكمته، وقدرته في إتقان صنعته وغير ذلك مما دعانا الله تعالى إلى النظر فيه.

ومن هنا كان المسلم على يقين بوجود الله، من خلال إثبات وجود الخالق بدلالة الترابط بين الأسباب في حكم الأوليات أو البديهيات.

إن من أكبر المحرمات جريمة الزنا، والحكم فيها لا بد أن يقوم على بينة قطعية، ومفردات وبراهين يقينية، ولا يُبْنى على أمور ظنية. وقد بيَّن القرآن وسائل إدراك اليقين عند الحكم على المرتكبين لها، فمن ذلك البديهيات وارتباط العلل بالمعلولات، كما قالت مريم للملك عندما قال لها: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ مريم:١٩/٢٠.

وهي تعني أنه لم يمسسها بشر بزواج، وأنها لم تكن بغيا بزنا؛ لأن العقل الصريح يعي أن البديهيات تجعل العاقل يحكم حكما يقينيا بأن الولد لا يأتي إلا من طريق مشروع، أو طريق ممنوع.

ولذلك أكد لها الملك أن ذلك واضح صحيح، وأن حالتها استثناء من أحكام العقل الصريح، وأن الله يخلق ما يشاء بخرق العادة بين سائر العقلاء، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ مريم: ٢١.

من أجل ذلك أثبت لها الخالق براءتها، بخرق العادات وظهور المعجزات، وأوحى إليها أنها إذا رأت من أنكر عليها، أن تلزم الصمت وتمتنع عن الكلام، وكل ما عليها أن تشير إلى الغلام وتقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ مريم: ٢٦/ ٣٣.

سبحان الله أطفل صغير ينطق بهذه الكلمات؟ ويعرف كل هذه المعلومات؟ ويفهم لوازم القول من العبارات؟

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ٥٩. وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ مريم: ٣٤/ ٣٥.

والله ﷻ قادر على أن يعلم الناس ما يشاء، فيدركون بأبصارهم ما هو تحت الأرض، أو فوق السماء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة:٢٥٥ .

ولكنه سبحانه حكيم، ومن حكمته أنه جعل جهاز الإدراك في الإنسان محدودا، وجعل باب الاطلاع على الغيب بالعقل وحده بابا مسدودا؛ لكي تكون الحياة نوعا من أنواع الابتلاءات، وليكون أهل العلم بين الناس درجات فوق درجات.

ومن ثم فإن آيات القرآن أثبتت للإنسان جهازا للإدراك شاملا متكاملا أساسه في القلب، وأول مهامه إدراك الأشياء ومعرفة الأسماء، وتمييز خصائصها، والتعرف على أوصافها. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الحج:٤٦.

وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ الأعراف:١٧٩، فالبديهيات من أبرز الأمور العقلية في الدلالة على وجود الخالق.

ثانيا: المحسوسات.

المحسوسات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وقد جعلها الله ﷻ وسيلة من وسائل الإثبات، وجعلها من مدارك اليقين

لدى العقل الصريح، فبالمحسوسات يثبت الحكم في جريمة الزنا على وجه اليقين كما ثبت بالأوليات.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ النور:٤/٥.

وقد جاء في الصحيح عَن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قَال: (كنَّا ليْلَةَ الجُمُعَةِ فِي المَسْجِدِ، إذ جَاءَ رَجُل مِنَ الأنْصَارِ فقَال: لوْ أنَّ رَجُلا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلا، فتكَلَمَ جَلدتُموهُ، أوْ قتَل قتَلتُموهُ، وَإنْ سَكتَ سَكتَ عَلى غَيْظٍ، وَاللهِ لأسْألَنَّ عَنْهُ رَسُول اللهِ ﷺ، فَلمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فسَألهُ، فقَال: يا رسول الله، لوْ أنَّ رَجُلا وَجَدَ مَعَ امْرَأتِهِ رَجُلا، فَتكَلمَ جَلدتُمُوهُ، أوْ قتَل قتَلتُمُوهُ، أوْ سَكتَ سَكتَ عَلى غَيْظٍ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ النور:٦/٩) [١].

وقد أمر الله عباده باستخدام المحسوسات التي هي من مكونات الجهاز الإدراكي في النظر إلى الإبداع الكوني، والتأمل في خلق السماوات، والتفكر في سائر المخلوقات.

---

(١) رواه مسلم في كتاب اللعان ١١٣٣/٢ (١٤٩٥).

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ الغاشية:١٧/٢١.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ العنكبوت:٢٠.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ الروم:٤٨/٥٠.

ثالثا: المتواترات.

المتواترات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وهي الخبر المتواتر بنقل العدل الضابط الصادق، كعلمنا بوجود مكة والمدينة، فإن العلم بوجودهما علم يقيني. وكذلك بعثة النبي ﷺ العلم بها علم يقيني، لما ورد فيها من تواتر الأخبار ونقل حملة الآثار، وقد اتفق علماء الحديث على أن الأحاديث المتواترة تدل على اليقين.

والمتواتر من الأحاديث، هو ما رواه جمع يستحيل اتفاقهم على الكذب، عن جمع آخر يستحيل اتفاقهم على الكذب، إلى نهاية الإسناد

عن رسول الله ﷺ [(١)].

ويحصل اليقين أيضا بخبر الواحد المعروف معرفة شخصية بالعدالة والضبط، وعدم المبالغة في القول، والمعهود عنه بطول العشرة عدم الكذب، كالراوي الثقة الذي لم يعرف بارتكاب كبيرة، ولا إصرار على الصغيرة، فربما يحدث خبره من اليقين في النفس ما لا يحدثه أخبار التواتر.

ولم يختلف أحد من الأمم في أن رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسولا واحدا يدعوهم إلى الإسلام، واحدا واحدا مفردا إلى كل مدينة وقبيلة، كصنعاء وحضرموت ونجران، وتيماء والبحرين وعمان، وغير ذلك الكثير من البلدان.

وكان كل رسول يُعلم الناس أحكام دينهم كلها، عقيدة وشريعة، وافترض النبي ﷺ على كل جهة قبول رواية أميرهم ومعلمهم؛ فصح قبول خبر الواحد الثقة عن مثله مبلغا إلى رسول الله ﷺ.

روى البخاري من حديث البَرَاءِ ﷺ أنه قَال: (لَمَّا قَدِمَ رَسُول اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، صَلى نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلى الكَعْبَةِ، فَأَنْزَل اللهُ تَعَالى: "قَدْ نَرَى تَقَلبَ وَجْهِك فِي السَّمَاءِ فَلنُوَليَنَّك قِبْلةً تَرْضَاهَا". فَوُجِّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ، وَصَلى مَعَهُ

(١) انظر في تعريف الحديث المتواتر، قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ١/١٤٦، والمنهل الروي لابن جماعة ١/٣١، وتدريب الراوي ٢/١٨٠.

رَجُل العَصْرَ، ثمَّ خَرَجَ فَمَرَّ عَلى قَوْمٍ مِنْ الأَنْصَار، فَقَال هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ قَدْ وُجِّهَ إِلى الكَعْبَةِ، فَانْحَرَفُوا وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلاةِ العَصْرِ)[1].

رابعا: التجريبيات.

التجريبيات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وقد يعبر عنها باطراد العادات، وذلك مثل حكمك بأن النار محرقة، والماء يطفئها، وأن الشمس مشرقة، والسقف يحجبها، وأن الماء ينزل من السماء، فتحيا الأرض بعد موتها، فهي سنن وعادات، وتجارب وممارسات، تدل على حدوث اليقين في النفس.

ولذلك حذرنا الله من العصيان، وذكرنا بما حدث لأعداء الحق في سالف الزمان، فقد كان مصيرهم الخسف والمسخ والصيحة والنيران، كما قال تعالى في القرآن: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ فاطر:٤٣. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾ محمد:٧/١١.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التمني، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم ٦/٢٦٤٨ (٦٨٢٥).

وقال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ آل عمران:١٣٧.

وقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنفال:٣٨.

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ الصافات:١٣٣/ ١٣٨.

وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَالَ: (لا يُلدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) (١).

وروى البخاري من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلى النَّارِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا) (٢).

خامسا: الاعتراف.

من الأمور التي يدرك بها العقل الصريح حقائق الأشياء اعتراف الإنسان على نفسه بذنبه، وهو سيد الأدلة، وعليه أقام النبي ﷺ الحد

---

(١) البخارى في الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٥/٢٢٧١ (٥٧٨٢).

(٢) السابق، باب قوله: اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٥/٢٢٦١ (٥٧٤٣).

ورجم الزاني والزانية.

روى مسلم عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب رضي الله عنه أنه قَال: (جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالكٍ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقَال: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال: وَيْحَكَ ارْجعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إِليْهِ. قَال بريدة: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثمَّ جَاءَ فقَال: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: وَيْحَكَ ارْجعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إِليْهِ. قَال: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثمَّ جَاءَ فقَال: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال النَّبِيُّ ﷺ مِثل ذلكَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ، قَال لهُ رَسُول اللهِ: فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟ فقَال: مِنْ الزِّنَا، فَسَأَل رَسُول اللهِ ﷺ أَبِهِ جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ ليْسَ بِمَجْنُون، فقَال: أَشَرِبَ خمْرًا؟ فقَامَ رَجُل فاستنكحه، فَلمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ.

قَال بريدة: فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَزَنَيْتَ؟ فقَال: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِل يَقُول: لقَدْ هَلكَ. لقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ. وَقَائِل يقُول: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَل مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ، أَنَّهُ جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ثمَّ قَال: اقْتُلنِي بِالحِجَارَةِ.

قَال: فَلبِثوا بِذَلكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثلاثةً، ثمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُمْ جُلوسٌ، فَسَلمَ ثمَّ جَلسَ فقَال: اسْتَغْفِرُوا لمَاعِزِ بْنِ مَالكٍ. قَال بريدة: فقَالوا: غفَرَ اللهُ لمَاعِزِ بْنِ مَالكٍ، قَال بريدة: فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ تَابَ تَوْبَةً لوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لوَسِعَتْهُمْ.

قَال: ثمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنْ الأَزْدِ، فَقَالتْ: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال: وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِليْهِ، فَقَالتْ: أَرَاكَ

تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالكٍ، قَال: وَمَا ذاكِ؟ قَالتْ: إِنَّهَا حُبْلى مِنْ الزِّنَا. فَقَال: آنْتِ؟ قَالتْ: نَعَمْ. فَقَال لهَا: حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ. قَال: فَكَفَلهَا رَجُل مِنْ الأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ. قَال: فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَال: قَدْ وَضَعَتْ الغَامِدِيَّةُ. فَقَال: إِذا لا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلدَهَا صَغِيرًا ليْسَ لهُ مَنْ يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُل مِنْ الأَنْصَارِ فَقَال: إِليَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَال بريدة: فَرَجَمَهَا) [١].

وغاية ما للعقل الصريح النظر في الأسباب، والتعرف بدلالتها وجود الخالق، فقول العامة: ربنا عرفناه بالعقل. لا يحمل إلا على معرفة وجوده من خلال النظر في الأسباب، والتعرف من خلالها على عظمته وعلمه ومشيئته، وقدرته وحكمته.

ولا يجوز للإنسان أن يتجاوز ذلك كما فعلت المعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرهم من أتباع الجهمية؛ لأنه سوف يقع في الضلال ويقول على الله ما هو محال، فلو أردنا أن نتعرف على عالم الغيب أو ما يحدث في القبر من عذاب أو نعيم، أو عالم الملائكة، أو عالم الجن والشياطين، أو نتعرف على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا بد من طريق آخر هو طريق النقل.

وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦.

---

(١) مسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا ٣/١٣٢١ (١٦٩٥).

• ما المقصود بالنقل؟

يقصد بالنقل عند علماء العقائد الوحي المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويسمى أيضا بالشرع، أو السمع، أو الخبر، كقول أبى عمر بن عبد البر: (حديث النزول حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو منقول من طرق سوى هذه من أخبار العدول عن النبي ﷺ) (١).

وكقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والحكم المرتب على النقل الباطل باطل بالإجماع) (٢).

وكقوله أيضا عن صفة الكلام ونسبة القول إلى الله تعالى: (فالقول قد ورد في السمع مضافا إلى الله.. وقد بسطت الكلام على ذلك في غير هذا الموضع، وبينت أن ما جاء به الشرع الصحيح هو الذي يوافقه العقل الصريح) (٣).

والنقل، أو الوحي، أو الشرع، أو السمع، أو الخبر، كلها عند علماء العقائد معان مترادفة، تدل على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والنقل هو ما جاءنا من الله يعرفنا فيه بنفسه، فيبين لنا فيه أسماءه وأوصافه وأفعاله، ويبين ما في عالم الغيب من الملائكة والجن، وما

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ٧/١٢٨.
(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧/٢٩١.
(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/٣٨٧).

يحدث في الملأ الأعلى، وما سيحدث يوم القيامة.

والعاقل لا بد أن يقر بالنقل، ويقدمه، ويسلم له، فلا يوجد من هو أعلم بالله من الله، ولا أعلم من رسول الله بالله، فما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات وجب علينا الإيمان به كما أخبر، وما أمرنا الله به كان صلاحنا في اتباعه.

- **جملة النقل تمثلت في القرآن وما ثبت في السنة المطهرة.**

من أصول العقيدة الصحيحة التي كان عليها سلفنا الصالح إيمانهم بأن جملة الرسالة التي نزلت من الله إلى رسوله ﷺ تمثلت في القرآن، وما ثبت في السنة المطهرة، وقد تلقاها النبي ﷺ عن طريق الوحي، وعلى أشكاله المختلفة كما قال سبحانه:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ النجم: ١/٥.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ الشورى: ٥١.

وقد تحددت بهذه الآية وسائل خطاب الرسل مع ربهم.

١- الوسيلة الأولى: الوحي من خلال الرؤيا في المنام، كما أوحى الله لإبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام. قال تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي

أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ الصافات: ١٠٠/ ١٠٧.

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقُول: (بيْنَا أَنَا نائِمٌ، رَأَيْتُنِي عَلى قَلِيبٍ علَيْهَا دَلوٌ، فَنزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لهُ ضَعْفَهُ، ثمَّ اسْتَحَالتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ، فَلمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ) (١).

وهذه الرؤيا للأنبياء وحي، ولغيرهم مبشرات، لكن لا قيمة لها في إثبات الأحكام، أو إلزام النفس بأي اعتقاد يراه في المنام، أو إلزام الآخرين بمقتضاه.

وذلك لما روي عند البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَال: (سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: لمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلا المُبَشِّرَاتُ، قَالوا: وَمَا

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا ٣/١٣٤٠ (٣٤٦٤). والذنوب هو الدلو العظيمة التي فيها ماء، والغرب الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد الثور. والقليب البئر التي لم تبن جوانبها بالحجارة ونحوها، ومعنى نزع أي استقى بالدلو، والضرب بعطن إذا رويت الإبل ثم بركت حول الماء، والمراد اتساع الأمصار.

المُبَشِّرَاتُ؟ قَال: الرُّؤْيَا الصَّالحَةُ) [(١)].

وعند الترمذي وصححه من حديث أَنَس ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (إِنَّ الرِّسَالةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلا رَسُول بَعْدِي وَلا نَبِيَّ، قَال: فَشَقَّ ذَلكَ عَلى النَّاسِ، فَقَال: لكِنِ المُبَشِّرَاتُ، قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، وَمَا المُبَشِّرَاتُ؟ قَال: رُؤْيَا المُسْلمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ) [(٢)].

٢- الوسيلة الثانية: من وسائل خطاب الرسل مع ربهم الوحي عن طريق الكلام الإلهي المباشر من وراء حجاب بدون واسطة يقظة، كما كلم الله موسى عليه السلام فقال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ النساء:١٦٤.

وقال أيضا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأعراف:١٤٣.

٣- الوسيلة الثالثة: من وسائل خطاب الرسل مع ربهم، الوحي عن طريق الكلام الإلهي غير المباشر، بواسطة إرسال أمين الوحي جبريل، وله في كيفية التبليغ إحدى حالتين وردتا عند الإمام البخاري من حديث الحارث بن هشام ﷺ، لما سأل رسول الله ﷺ فقَال: (يَا رَسُول

---

(١) البخارى في كتاب التعبير، باب المبشرات ٦/٢٥٦٤ (٦٥٨٩).

(٢) الترمذي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ٤/٥٣٣ (٢٢٧٢).

اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثل صَلصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَليَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَال، وَأَحْيَانًا يَتَمَثل ليَ المَلكُ رَجُلا، فَيُكَلمُنِي فَأَعِي مَا يَقُول. قَالتْ عَائِشَةُ رَضِيِ اللهُ عَنْهَا: وَلقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِل عَليْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ ليَتَفَصَّدُ عَرَقًا) [(١)].

وقد انقطع الوحي بعد ذلك، فلا ينزل على أحد من البشر إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

فمن ادعى الاتصال المباشر في الخطاب مع الله تحت أي تأويل أو مسمى ليجعل كلامه مقبولا بين الناس، أو حاول أن يضفي القدسية على كلامه، بادعائه أن ما يقوله أو ما يكتبه، إنما تلقاه بطريق من طرق الوحي السابقة، فقد كذب على الله ورسوله ﷺ، وتجاوز أصول القرآن والسنة وسعى في هدمها. مثال ذلك قول القائل من غلاة الصوفية: (أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربى، وأنتم تقولون: حدثني فلان وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات) [(٢)].

---

(١) البخارى في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/ ٤ (٢).

(٢) القائل هو أبو يزيد البسطامي (ت:٢٦١هـ) له كثير من الشطحات، انظر ذخائر الأخلاق لمحي الدين بن عربي ص١٥٣، والفتوحات المكية ١/ ٣٦٥، والجواهر والدرر لعبد الوهاب الشعراني، بهامش الإبريز ص ٢٦٨.

وكذلك ادعاء محي الدين بن عربي أن كتاب الفصوص أخذه من يد رسول الله ﷺ مكتوبا من اللوح المحفوظ، وهو مجرد ناقل أمين بلا زيادة أو نقصان، كما قال: (فحققت الأمنية، وأخلصت النية، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب، كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان) (١).

وقوله أيضا: (فاقتصرت على ما ذكرته من هذه الحِكَم في هذا الكتاب، على حد ما ثبت في أم الكتاب، فامتثلت ما رسم لي، ووقفت عندما حد لي، ولو رمت زيادة على ذلك ما استطعت؛ فإن الحضرة تمنع من ذلك) (٢).

وهنا يشبه ابن عربي نفسه بالرسول ﷺ في دقة البلاغ عن الله وخوفه من الوعيد الذي ورد في قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحاقة:٤٣/٤٧.

وكذلك ما ذكره عبد الكريم الجيلي من أصحاب فكر وحدة الوجود وهو يحاكى طريقة الوحي في التجلي الصوفي حيث قال: (يتجلى الحق سبحانه وتعالى على العبد بتجل يسمع فيه صلصلة الجرس، ويسمع تصادم الحقائق بعضها مع بعض، فيجد لها أطيطا يملأ ما بين السماء

---

(١) فصوص الحكم لابن عربي ص ٤٧، طبع بيروت، وانظر مصرع التصوف لإبراهيم بن عمر البقاعي ص٣٧، نشر عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.

(٢) فصوص الحكم لابن عربي ص ٥٨، طبع بيروت.

والأرض، ثم إذا تقوى وثبت لسماع ذلك، يترقى ويسمع صلصلة الجرس عند رفع الستر) [١].

كل ذلك وأمثاله تهوين لحرمة الدين، وانتهاك مقبوح مشين، انتهاك للثوابت المستقرة في اعتقاد المسلمين.

وقد يجوز ذلك بعض المدافعين عن الصوفية من باب المخاطبات الروحانية، والمحادثات الإيمانية عند المكاشفات والتجليات التي تحدث لبعض الصوفية في شطحاتهم، فنقول له: هذا باب مظلم مفتوح على مصراعيه للمغرضين والحاقدين وشبهات الشياطين. ويكفي العاقل أن يقف على نظرة المستشرقين للوحي عند المسلمين، وكيف وجدوا في مثل ذلك سبيل الخلط بين الوحي وترهات الصوفية.

• النقل الصحيح حجة يوجب تصديق الخبر وتنفيذ الطلب.

قال ابن حزم: (إن القرآن لما كان هو الأصل الذي يرجع إليه في معرفة الإسلام، وجدنا فيه وجوب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ، ووجدناه ﷻ يقول فيه واصفا لرسوله ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم:٣/٤، فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ على قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام وهو القرآن.

(١) المناظر الإلهية للجيلي ص ١٩٤، تحقيق د. نجاح محمود الغنيمي، دار المنار.

والثاني: وحي مروي منقول، غير مؤلف ولا معجز النظام، ولا متلو، لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبين عن الله ﷻ مراده منا)[1].

ومن الأدلة القرآنية التي تقرر هذه الحقيقة بلا نزاع، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ الحشر:٧. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ آل عمران:٣١/٣٢. وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء:٦٥.

وأمثال ذلك في القرآن كثير، وكله يدل على أن السنة وحي من الله تعالى لرسوله ﷺ، وأنه لا بد من اعتمادها في معرفة أصول الأشياء، والإذعان لها كالقرآن سواء بسواء.

وقد ثبتت روايات كثيرة في السنة، تؤكد أن الصحابة ﷺ كانوا لا يتهاونون في ذلك، وأن النبي ﷺ حذرهم من الكذب عليه، أو التكذيب بسنته، فمن ذلك:

ما رواه أبو داود وصححه الألباني من حديث المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثلهُ مَعَهُ، أَلا

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٩٣/١)، نشر دار الحديث، القاهرة.

يُوشِكُ رَجُل شَبْعَانُ عَلى أَرِيكَتِهِ يَقُول: عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرآن، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلال فَأَحِلوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ) (١).

وفي رواية أخرى عند الترمذي وصححها الشيخ الألباني: (وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُول اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ) (٢).

وقد روى البخاري ومسلم من حديث علقمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (لعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلجَاتِ للحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلقَ اللهِ. فَبَلغَ ذَلكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ، يُقَال لهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالتْ: مَا حَدِيث بَلغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لعَنْتَ الوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلجَاتِ للحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلقَ اللهِ.

فَقَال عَبْدُ اللهِ: وَمَا لي لا أَلعَنُ مَنْ لعَنَ رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ. فَقَالتِ المَرْأَةُ: لقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لوْحَيِ المُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ. فَقَال: لئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لقَدْ وَجَدْتِيهِ. قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر:٧. فَقَالتِ المَرْأَةُ: فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلى امْرَأَتِكَ الآنَ. قَال: اذْهَبِي فَانْظُرِي. قَال: فَدَخَلتْ عَلى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ، فَلمْ تَرَ شَيْئًا، فَجَاءَتْ إِليْهِ فَقَالتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا،

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٤/٢٠٠ (٤٦٠٤)، وانظر صحيح ابن ماجة (١٢)، ومشكاة المصابيح ١/٣٥ (١٦٣).

(٢) رواه الترمذي في كتاب السنة، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ ٥/٣٨ (٢٦٦٤)، وانظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٦٤).

فَقَال: أَمَا لوْ كَانَ ذَلكَ لَمْ نُجَامِعْهَا) [١].

ومعنى لم نجامعها، قال جماهير العلماء: معناه لم نضاجعها، ولم نجتمع نحن وهي، بل كنا نطلقها ونفارقها، وقيل: يحتمل أن معناه لم أطأها، وهذا ضعيف كما ذكره النووي، والصحيح أن من عنده امرأة مرتكبة معصية كوصل الشعر أو ترك الصلاة أو غيرهما ينبغي له أن يطلقها.

وكلام ابن مسعود ﷺ واضح في التزامه بالسنة قولا وعملا، كالتزامه بمقتضى أحكام القرآن.

وروى أبو داود عن عمران بن حصين ﷺ أنه كان جالسا مع أصحابه، فقال له رجل من القوم: (يا أبا نجيد إنكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلا في القرآن، فغضب عمران، وقال للرجل: أوجدتم في كل أربعين درهما درهم، ومن كل كذا وكذا شاة شاة، ومن كل كذا وكذا بعيرا، كذا وكذا، أوجدتم هذا في القرآن؟ قال: لا، قال: فعمن أخذتم هذا؟ أخذتموه عنا، وأخذناه عن نبي الله ﷺ، وذكر أشياء نحو هذا) [٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة الحشر، باب وما آتاكم الرسول فخذوه ٤/١٨٥٣ (٤٦٠٤)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ٣/١٦٧٨(٢١٢٥).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الزكاة، باب ما تجب فيه الزكاة ٢/٩٤ (١٥٦١)، وفي رفعه ضعف، انظر ضعيف أبي داود (١٥٦١).

ولا عبرة بمذهب الشيعة والخوارج في رد بعض ما ورد في السنة لأن لهم مواقف خاصة في كثير من الصحابة، وهم رواة الحديث عن رسول الله ﷺ. قال الإمام السيوطي في رد الشيعة لكلام النبي ﷺ: (وأصل هذا الرأي الفاسد في عدم الاحتجاج بالسنة أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة، ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن، وهم في ذلك مختلفو المقاصد، فمنهم من كان يعتقد أن النبوة لعلي، وأن جبريل أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، ومنهم من أقر للنبي ﷺ بالنبوة، ولكن قال: إن الخلافة كانت حقا لعلي، فلما عدل به الصحابة عنه إلى أبى بكر ﷺ كفروا الصحابة، وبنوا على ذلك رد الأحاديث كلها، لأنها عندهم بزعمهم من رواية قوم كفار) [(١)].

ولا عبرة أيضا ببعض آراء المعتزلة والمتكلمين الداعية إلى عدم الاحتجاج بالسنة في الآحاد، أو المتواتر من الروايات بحجة مخالفتها لآرائهم الكلامية،كقول أبى الهذيل العلاف وهو أحد من شيوخ المعتزلة: (إن الحجة من طريق الأخبار فيما غاب عن الحواس من آيات الأنبياء عليهم السلام وفيما سواها، لا تثبت بأقل من عشرين نفسا، فيهم واحد من أهل الجنة، أو أكثر) [(٢)].

ويذكر عبد القاهر البغدادي أن كلام العلاف تعطيل للأخبار

---

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص٦، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ١/١٠٩، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الواردة في الأحكام الشرعية عن فوائدها، وتهكم واحتقار لما خالف ذلك من روايات السنة، واستهزاء بناقليها [(١)].

ومن البرهان على قبول خبر الواحد قول الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ القصص: ٢٠.

والشاهد أن الرجل الواحد أخبر موسى عليه السلام عن مؤامرة الملأ لقتله فصدقه وخرج من المدينة خائفا يترقب. وكذلك تصديقه عليه السلام المرأة في قولها وخبرها عن أبيها فمضى معها.

قال تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ القصص:٢٥.

وجمهور العلماء على أن خبر الواحد العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه إلى رسول الله ﷺ يوجب العلم والعمل معا، فلا عبرة بقول المعتزلة والخوارج: إن خبر الواحد لا يوجب علينا علما ولا عملا.

- **النقل الصريح لا يثبت إلا بقواعد المحدثين.**

لا بد من التسليم بأن الطريق الوحيد في ثبوت السنة هو الالتزام بقواعد المحدثين في معرفتها، فإذا كانت الآيات القرآنية لا تؤخذ بمعزل عن السنة، وفصل أحدهما عن الآخر لا يقبل في دين الإسلام، فإن من أعظم الأسس في الاعتماد على السنة، أن نسلم بأن الطريق الوحيد في

---

(١) السابق ١/١١٠.

ثبوتها هو الالتزام بقواعد المحدثين في معرفتها. وهو ما عرف عند المسلمين بعلم الحديث، أو العلم بالأصول التي يعرف بها أحوال السند والمتن، من حيث القبول والرد، وذلك فيما نقل من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، ورواياتها وضبطها وتحريرها، وإسناد ذلك إلي من نسب إليه، بتحديث أو إخبار أو عنعنة أو غير ذلك.

فليس كل ما نسب إلى النبي ﷺ يقبل بلا ضابط أو نقاش، فلا بد من الترابط العلمي المتصل بين رواة السند، بحيث يتلقى اللاحق من الرواة عن السابق، فلا يكون بين اثنين من رواة الحديث فجوة زمنية، أو مسافة مكانية يتعذر معها اللقاء، أو يستحيل معها التلقي والأداء، كما يلزم اتصاف الرواة بالعدالة، وهى صفة خلقية تكتسبها النفس الإنسانية، وتحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، ومجانبة الفسوق والابتداع، ولا بد أن يتصف الراوي أيضا بالتثبُّت من الحفظ، والسلامة من الخطأ، وانعدام الوهم مع القدرة على استحضار ما حفظه.

وهذا شرط في جميع رواة الحديث الصحيح من أول السند إلى آخره. يضاف ذلك إلى عدم مخالفة الراوي لمن هو أوثق منه، ولا يكون أيضا في روايته علة قادحة ظاهرة تؤدى إلى عدم ثبوت الحديث.

أما الحكم على ثبوت الحديث بالأصول الكلامية أو المناهج الفلسفة، أو الكشوفات الذوقية، فلا يعد رجوعا إلى قرآن وسنة بفهم سلف الأمة؛ لأن الآراء العقلية متعددة، والأذواق مختلفة ومتغيرة، ولا يمكن ضبط مثل هذه الأشياء، فالحكم على أحاديث الرسول ﷺ في

هذه الحالة، يحكمه الهوى، ويسوقه استحسان النفس وتقلب الرأي.

ومن ثم لا عبرة بقول ابن عربي: (ربما صح عندنا من أحاديث الأحكام ما اتفق المحدثون على ضعفه وتجريح نقلته، وقد أخذناه عن الكشف عن قائله صحيحا، فنتعبد به أنفسنا على غير ما تقرر عند علماء الأصول، ورب حديث قد صححوه واتفقوا عليه، وليس بصحيح عندنا بطريقة الكشف، فنترك العمل به) [١].

ومعنى هذا أن الصوفية لهم حكمهم الخاص على إسناد الحديث، فعن طريق الكشف يزعمون كذبا أنهم يتصلون رأسا بالنبي ﷺ ويصححون الحديث أو يضعفونه !! وبهذا الهجوم على قواعد علم الحديث تنهدم السنة، وتبقى ألعوبة في يد هؤلاء الذين يحكمون عليها بما شاءوا، وليس من ضابط نرجع إليه، ولا فيصل نحتكم إليه، ما دام أن هذا الكشف علم روحي غيبي، وقد يكون كشف هذا الصوفي غير كشف ذاك.

ومثل ذلك أيضا يهدم الشعراني علم الحديث وقواعده في تمييز المقبول والمردود فيقول: (قد رأينا في كلام علماء الرسوم تكفير الأولياء المحدثين، لكونهم يصححون الأحاديث التي قال الحفاظ بضعفها، وهذا عدم إنصاف منهم. وأقل الأحوال، أن ينزلوا الأولياء المكاشفين منزلة أهل الكتاب، لا يصدقونهم، ولا يكذبونهم [٢].

---

(١) رسائل ابن عربي ص٤ ، دار إحياء التراث، حيدر آباد، الهند، ١٩٤٨م.

(٢) اليواقيت والجواهر لعبد الوهاب الشعراني (٢/٩٠)، طبعة دار المعرفة بيروت.